المحاضرة الخامسة:

الحواضر الجزائرية محطات لمرور ركب الحجيج:

كانت الحواضر والمراكز التجارية الجزائرية من أهم المحطات الرئيسية لحجيج بلاد السودان، حيث شكل الحج فرصة سنوية للكثير من الأفارقة لزيارة عديد المناطق في الجزائر والالتقاء بعلمائها، وتسجل الكثير من المصادر التاريخية رحلات الحجيج التي قام بها الأفارقة عبر توات وتلمسان وتمنطيط وعين صالح وغيرها من المدن، فبالنسبة لتلمسان فيذكر ابن خلدون نصا في غاية الأمية يبرز من خلاله وجود صداقة ومودة ربطت منسا موسى ملك مالي المشهور بأحد رجالات قصر السلطان الزياني ابي تاشفين الأول وهو الحاجب "هلال القحطاني" الذي قام بإحدى رحلاته إلى الحج سنة 1325 التقى في طريقه بمنسى موسى الذي كان في طريقه إلى الحج أيضا نشأت بينهم علاقة صداقة ومودة نتج عنها فيما بعد مراسلات عديدة بين ملوك تلمسان وملوك مالي، توطدت على اثرها العلاقة بين تلمسان ومالي.

أما قوافل الحجيج التي مرت بتوات فهي عديدة وعلى فترة زمنية طويلة تكاد أغلب ركب الحجيج تمر عبرها، أشهرها رحلة الملك المالي منسى موسى الذي قام برحلة حجه عام 1325م ةالتي عرفت كثير من الأبهة والقوة حيث حوت رحلته كثير المرافقين من رجال العلم، أنفق خلالها ما يقارب 100 حمل بعير من تبر الذهب.

وضمت قوافل الحجيج كثير من العلماء والفقهاء الأفارقة ممن كانت لهم اسهامات وآثار بالمنطقة من دون شك نذكر منهم الفقيهين الشيخ أحمد بن عبد العزيز القوراري والشيخ محمد ابن الشيخ أحمد بابا التمبكتي اللذين حجا رفقة الباشا علي بن عبد القادر (ت 1632)، بعدا أراد الحج سنة 1631م، وفي توات لحق به القائد الفلاني بن عيسى الرحماني البربوشي.

ومن العلماء الذين زاروا توات في مواسم الحج الشيخ الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي ت 1733م، والشيخ أبو بكر بن الطالب عمر البرتلي (توفي 1785)، حمل معه الكثير من الكتب والمخطوطات من بلاد الحجاز، استنسخ عدد كبير منها في توات، كما زار توات أثناء حجه الحاج البشير بن أبي بكر بن الطالب محمد البرتلي (توفي 1799)، حج سنة 1789م، دون مراحل رحته في مؤلف يذكر فيه مراحل الطريق من توات إلى الحج.

وفي أغلب الأحيان كان حجاج بلاد السودان خصوصا فئة العلماء مكان نزولهم في توات هي زاوية الشيخ سيدي علي بن حنيني بزاقلو، زاوية كنته، زاوية الركب النبوي

بأقبلي بمنطقة تيديكلت، وتسابيت، وزاوية عبد الله بن طمطم بأوقروت لمن اختارو الحج غبر الطريق الشمالي.

وعلى العموم كانت ركب الحجيج تشكل محطة يلتقي فيها العلماء والطلاب العلم من مختلف أقطار السودان الغربي والجزائر، إذ ينم في هذه المناسبة التقاء العلماء، تناقش المسائل الفقهية، ويتم فيها تبادل الكتب أو بيعها أو هدايتها، أو حتى اعارتها، كما كانت تمنح العديد من الاجازات العلمية لبعض الطلاب والاطلاع على المنتوج الثقافي العام لمختلف مناطق الجزائر، ومناطق جنوب الصحراء.

تنقل الأسر والعائلات الجزائرية إلى بلاد أفريقيا جنوب الصحراء:

كان للعلاقات التجارية بين الجزائر وبلاد إفريقيا جنوب الصحراء دور كبير في نسج العلاقة العلمية والاجتماعية بينهما، حيث كان التنقل التجاري السمة الغالبة لدى الكثير من العائلات الجزائرية نحو بلاد السودان، خاصة من الحواضر التي شهدت اشعاعا علميا كتلمسان التي انتقلت منها عائلة المقري إلى بلاد السودان أين نظمت نشاطها التجاري هناك في شكل يشبه شركة تجارية عائلية، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار وتزوجوا والنساء، وكبرت عائلتهم حتى صار لها شأن كبير بين الأسر الإفريقية، ومن العائلات الأخرى التي انتقلت للاستقرار بإفريقيا جنوب الصحراء عائلة آل أقيت، عائلة العصنوني، عائلة العقباني، عائلة المرازقة التي كانت لهم علاقات وطيدة مع ملوك مملكة مالي.

كما كان لحاضرة ورجلان علاقات تجارية جد متميزة مع بلاد السودان خلال القرن السادس عشر خاصة مع مملكة أغاديس لدرجة أن بعض التجار قطنوا بها وبلغوا من الثراء ما جعلهم يمشون في الأسواق بالحراس، وقد وصف الحسن الوزان سكانها بالغنى بسبب تجارتهم مع بلاد السودان، ومنهم من انتقل هناك وتزوج من أهلها وامتهن الوساطة التجارية بين شمال الصحراء وجنوبها، ووفي الضفة الجنوبية وبالتحديد في تمبوكتو كانت تغص بالتجار والعلماء الجزائريين وفي هذا الأمر يذكر الأرواني: "أن بتمبوكتو وحدها مقبرة تضم خمسين تواتيا كلهم من الفقعاء والعباد"، فهذا التوافد العلمي والتداري لم يقتصر على الأفراد فقط؛ بل شمل قبائل بأكملها توزعت بين ضفتي الصحراء كقبيلة كنتة، وقبيلة الفلان، فظلا عن العائلات التي تفرعت بين توات وشنقيط وولاتة كعائلة الأشراف "أولاد سي حمو بلحاج" الذين أسسوا حاضرة النعمة بالقرب من ولاتة